# الاســـتـــشـــراق من بوابة الدراسات الاثنوغرافية والسوسيولوجية خلال القرن 19-20م، أوغست موليراس، وجاك بيرك نموذجا

عبد العالي العلمي
طالب باحث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله-فاس.
Alialamibenjebar1988@gmail.com
المملكة المغربية

**الملخص:**

تهدف هذه الورقة إلى إظهار أن حقل الاستشراق في ارتباطه بالعلوم الاجتماعية والإنسانية خلال القرن التاسع عشر وبداية العشرين، خاصة الدراسات الاثنوغرافية والسوسيولوجية التي ركزت أبحاثها على المغرب كمجال ميداني، لم يكن بريئا ولا حياديا، بل خدم الأجندة الاستعمارية.

نفترض أن هذه البحوث انساقت مع الفكر الإمبريالي، مما يثير السؤال الرئيسي، إلى أي مدى ساهمت في تعزيز المخطط الإمبريالي؟

يتناول البحث أعمال أوغست موليراس (قبل الحماية)، وجاك بيرك (بعدها) اللتان اعتمدتا المغرب ميدانا أساسيا.

يعتمد المنهج النقدي التحليلي عبر قراءة تفكيكية لكتاب " المغرب المجهول " (الجزء الأول والثاني)، وللطرح السوسيولوجي لبيرك، ليبرز كيف وفرت هذه الدراسات معرفة ميدانية ساعدت الاستعمار على ترسيخ هيمنته الاستعمارية.

تكمن أهمية هذه الورقة في إلقاء الضوء على مرحلة حرجة في تاريخ المغرب، حيث تحولت المعلومات إلى سلاح غزو، كما أكدت ذلك لوسيت فالنسي "لا فرق بين البحث العلمي والعمل السياسي والعسكري والاستكشاف أداة من أدوات الغزو ".

يخلص البحث إلى أن هذه الدراسات زودت الاستعمار بخلاصات ميدانية ركزت سيطرته على المجتمع المغربي.

**الكلمات المفتاحية:** الاستشراق، الدراسات الاثنوغرافية، الدراسات السوسيولوجية، الاستعمار، المغرب المجهول، قبائل الريف وجبالة، قبيلة سكساوة.


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

# Orientalism and Colonial Knowledge: A Critical Analysis of Ethnographic and Sociological Studies on Morocco

## (Auguste Mouliéras and Jacques Berque as Case Studies)

**Abstract:**

This Paper aims to demonstrate that the field of Orientalism, in its connection to the social and human sciences during the nineteenth and early twentieth centuries—particularly ethnographic and sociological studies focusing on Morocco as a primary field site—was neither innocent nor neutral, but rather served colonial agendas. It posits that these researches aligned with imperial thought, raising the central question: To what extent did ethnographic studies and sociological research contribute to advancing the imperial project?The study examines the works of Auguste Mouliéras (pre-Protectorate era) and Jacques Berque (post-Protectorate), both of which used Morocco as their main terrain. It employs a critical analytical methodology through deconstructive readings of Mouliéras's The Unknown Morocco (Parts One and Two) and Berque's sociological framework, highlighting how these studies provided field knowledge that aided colonial domination.The paper's significance lies in illuminating a critical phase in Moroccan history, where information became a weapon of conquest, as Lucette Valensi affirmed: "There is no difference between scientific research, political and military action, and exploration is one of the tools of invasion." It concludes that these researches supplied the colonizer with field insights that sharpened colonial control over Moroccan society.

**Keywords:** Orientalism, Ethnography, Sociology, Colonialism, The Unknown Morocco, Rif and Jbala Tribes, Seksawa Tribe.


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

**مقدمة:**

مما لاشك فيه أن خوض غمار البحث في ما عرف "بالاستشراق –الدراسات الاستشراقية "ليس سهل المنال، لأن الموضوعات التي تم تناولها ضمن هذا المضمار عديدة الفروع ومتشعبة المسارات، ومنفتحة على كل القضايا والمجالات الحياتية منها ما اتصل بالدين ،باللغة ،بالثقافة ،بالعادات والتقاليد، وبالمعيش اليومي ،وهناك دراسات أخذت مسارا أخر تحت ستار العلوم من خلال بحوث ميدانية لعبت أدوارا في خدمة أجندات كولونيالية في سياق القرن العشرين ، هذه الموضوعات والدراسات كانت محط اهتمام المستشرقين من مختلف التيارات الدينية والاتجاهات الفكرية ، في محاولة من المركزية الغربية التعرف على الآخر الذي يسكن الشرق ،ذلك الآخر الذي يشبهني ويختلف عني في نفس الوقت.

فالصورة التي نقلها الرحالة ،وعلماء الخرائط من المستكشفين الأوائل خلال القرن الخامس عشر ،عند عودتهم إلى مواطنهم ،ألبسوه في صورة ذلك البربري ،المتوحش الذي لازال يعيش حياة بدائية ومتخلفة " [1]

لكن بحدوث متغيرات عدة خلال القرن التاسع عشر ، اتجهت أنظار المجامع الغربية نحو الشرق ،لتحقيق مرامي وأهداف إمبريالية فرضها السياق .

أما عن البدايات الأولى لظهور الحلقات الاستشراقية فقد أعزاها المؤرخين لهذا الحقل المعرفي على أنها تعود للقرن العاشر الميلادي، انطلقت إرهاصته الأولى بدراسة اللغة العربية حتى يسهل معرفة الشرق وعلومه، بما فيها الدين والعقيدة، وهناك من أعزى الأمر إلى أن الانطلاقة الأولى كانت مع نهاية الحروب الصليبية، والأصح أن هذه الدراسات استمرت منذ ذلك التاريخ إلى حدود القرن العشرين مع دخول الاستعمار الغربي واحتلاله لجل الأقطار .

فإذا كان الاستشراق قد بدأ متصلا باللغة ،والثقافة ، والدين لغايات تبشيرية ،فالمتغيرات التي حدثت في السياق الغربي خلال القرن التاسع عشر نتيجة ظهور علوم جديدة في الساحة العلمية ،الشيء الذي خدم حقل الاستشراق من خلال توسيع من شبكته المعرفية ،وبمده لجسور الانفتاح على باقي العلوم، بما فيها التاريخ ،علم الاجتماع أو ما يعرف في الأوساط العلمية بالسوسيولوجيا " [2] .

فظهور السوسيولوجيا الذي كان بفعل عدة عوامل سياسية، واقتصادية، وثقافية، وما رافقها من تحولات جذرية على البنى والنظم ومناهج التفكير ،بحيث عملت على دراسة الظواهر الاجتماعية داخل المجتمعات الغربية خلال القرن التاسع عشر ،قبل أن يطور هذا العلم من أسسه وأساليبه بانتقاله لدراسة المجتمعات الأخرى ،نموذج المقاربة الدوركهايمية في دراسته للشعوب البدائية "3.

---

[1] عبد الإله القيدي، محاضرات جامعية في مادة الثقافة، ماستر اللغات والحضارات الشرقية ومقارنة الأديان،جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس فاس،الموسم الجامعي 2022-2023.

[2] السوسيولوجيا ،علم من العلوم الإجتماعية والإنسانية ،ظهر في السياق الغربي نتيجة عدة عوامل الثورة الفرنسية لسنة 1789 ،الثورة الصناعية التي انطلقت من إنجلترا، الثورة الثقافية بألمانيا ،كلها عوامل ساهمت في بزوغ هذا العلم الذي حاول معالجة الظواهر الإجتماعية في شموليتها وفق أساليب ومناهج العلوم الطبيعية ،من بين المؤسسين لهذا العلم أوغست كونت ،الذي أصدر كتابا سماه "الفيزياء الإجتماعية " قبل أن يعدل عنه ليصدر عنوانا "علم الإجتماع".ومع ذلك فهناك من يعتبر ابن خلدون من خلال موسوعته " ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ،ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " كمؤسس لعلم العمران البشري خلال القرن الرابع عشر.

[3] أنتوني غدنز، ترجمة فايز الصياغ ،علم الاجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت الطبعة الرابعة، ص54.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ففي ظل هذا السياق الزمني المتوتر والمشحون الذي عرفه الغرب خلال القرن التاسع عشر ،كان الشرق ضمن اهتمامات الباحثين السوسيولوجيين قبل القادة العسكريين من الجيوش الإستعمارية .

بحيث تمخض عن هذا العلم الذي حاول معالجة الظواهر الاجتماعية في شموليتها ، الدين، الإعلام المجتمعات، البنى والنظم، من خلال فروع علمية عدة سوسيولوجيا الدين، سوسيولوجيا العالم الإسلامي، سوسيولوجيا المغرب ، هذه الأخيرة محور اهتمامنا بالأساس ،فمن ضمن الدراسات التي انتمت لهذا الميدان " نذكر دراسة لإدموند دوتي(idmond douti )،دافيد هارت David Hart، روبير مونطاني) Robert Mountani، بول باسكون (.paul baskoun)من ضمن هذه الحلقة العلمية اخترنا جاك بيرك Jack Berque كأحد المستشرقين من باب السوسيولوجيا.

وليس بعيدا عن هذا العلم ،هناك الأنثروبولوجيا 1 علم الإنسان في كليته ، فإذا كانت هذه الأخيرة تهتم بالإنسان وتحاول الإحاطة به من أجل التعرف عليه ،هنا تحضر الاثنوغرافيا كتخصص معرفي ضمن حقل الأنثربولوجيا ،أي علم وصف هذه الشعوب ،وتوصيف عاداتها وتقاليدها، ،بحيث يمكن اعتبار هذا التخصص المعرفي كمرحلة من مراحل البحوث الأنثربولوجية ،وهذا ما طرحه أحد الباحثين بقوله " الأنثروبولوجيا بوصفها المرحلة الثالثة في دراسة المجتمعات ،بينما تكون مهمة الاثنوغرافيا هي الوصف ،أي الدراسة الوصفية والمقارنة للثقافات والشعوب البدائية ،انطلاقا من معيار التشابه والاختلاف، وكذلك مقارنتها بالمجتمعات المعاصرة ، فهي مقترنة بالعمل الأولي المرتبط بالمرحلة الاستكشافية .وما يميزها هو الوصف الدقيق والمكثف، وفي نفس الوقت غياب التحليل والتفسير بحيث تبدو الاثنوغرافيا ليس كمرحلة ،ولكن كفرع من تخصص كبير الذي هو الإثنولوجيا ،فهي تبدو كوسيلة أو كتقنية توفر وصفا ومعلومات ومعطيات ،ووثائق يمكن استثمارها لاحقا في الإثنولوجيا أو الأنثروبولوجيا ،وهكذا فإن الإثنوغرافيا يمكن اعتبارها العمل الميداني " .2

فقد اعتبر المهتمين بهذا المجال أن السياق الزمني لظهور هذا العلم يعود إلى القرن السادس عشر وذلك مع اكتشاف أوربا لباقي العالم، ازدادت أشكال الهيمنة الغربية، بفعل التوسع الإمبريالي ." 3

وبفعل هذه الهيمنة الإمبريالية على الشرق ،كان للمستشرقين من انتماءات وتيارات فكرية متعددة ،لعبت أدوارا مباشرة وغير مباشرة في المد الاستعماري ،وبما أن حقل الاستشراق شاسع ومتعدد الروافد ،سنتناوله من أحد زواياه من خلال الدراسات القبلية – الدراسات الاثنوغرافية ،والدراسات السوسيولوجية ، فالمغرب كان قبلة وميدانا اختباريا ، إذ كان في صلب اهتمامات المستشرقين من الأنثربولوجيين ، الاثنوغرافيين، وعلماء الاجتماع ، فحسب ما أورده أحد الباحثين أن الانطلاقة الحقيقية للبحث العلمي الممنهج على المغرب بدأت منذ سنة 1890م ،ولا يستبعد أن تكون سابقة عن هذا التاريخ ".4

على هذا الأساس ننطلق من الإشكالية التالية:

-كيف ساهمت الدراسات الاثنوغرافية في خدمة أجندة المستعمر خلال القرن 19ميلادي؟

---

[1] الأنثروبولوجيا ،علم يهتم بدراسة الإنسان في كليته ،في جانبه بيولوجي،ثقافي ،اجتماعي،عبر الزمان والمكان لفهم كيف يعيش البشر ،وكيف يفكرون ،وكيف ينظمون حياتهم ومعاشهم.

[2] عبد القادر بوطالب ،محاضرات جامعية في مادة الأنثربولوجيا الثقافية والإجتماعية ،شعبة علم الإجتماع ،الفصل الثالث ،كلية الأداب والعلوم الإنسانية ،جامعة عبد المالك السعدي بتطوان ،الموسم الجامعي 2023 -2024.

[3] المرجع نفسه.

[4] الهادي المروي، ص17


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وإلى أي حد لعبت الدراسات السوسيولوجية أدوار ا في المخططات الكولونيالية –الاستعمارية؟

بما أن هناك العديد من المستشرقين في هذا الميدان ، سنحاول أن نسلط الضوء أكثر على أبحاث المستشرق الفرنسي – الجزائري أوغست موليراس Auguste Mouliérasباعتباره كأحد الباحثين ضمن الدراسات الاثنوغرافية من جهة ،ومن باب الدراسات السوسيولوجية ،سنكتفي بأحد الرواد المستشرق السوسيولوجي جاك بيرك Jack burkوما كرسه من أبحاث في محاولة منا لإثبات أو دحض أن الأبحاث التي قام بها هذين المستشرقين ( أوغست موليراس ،وجاك بيرك )على المغرب قد خدمت المستعمر بشكل من الأشكال؟

## 1. الإطار المفاهيمي للاستشراق، نشأته وتطوره التاريخي.

### 1-1 الإطار المفاهيمي للاستشراق.

عديدة هي التعاريف اللغوية والاصطلاحية التي أطلقت على مفهوم الاستشراق فنجد من المشقة والعسر إدراجها جميعها في هذا الحيز الورقي، لذا سنكتفي بما عرفه به العالم محمود حمدي زقزوق بقوله " الاستشراق هو علم الشرق أو العالم الشرقي، أما كلمة مستشرق تطلق على كل غربي يشتغل بدراسة الشرق كله أقصاه، وسطه، وأدناه، في لغاته وآدابه، وحضارته وأديانه"[1] ، وفي نفس السياق "المعنى الخاص للاستشراق يقصد به الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده، وتشريعاته، وحضارته بوجه عام " [2]

وهناك مفهوم آخر للاستشراق يعود للمفكر الفلسطيني ، أمريكي الجنسية إدوارد سعيد (1935-2003)، هذا الأخير يعتبر رائد من رواد نقد الفكر الاستشراقي من خلال كتبه العديدة التي لازالت متداولة في كل المحافل العلمية والأكاديمية وتدرس في أعرق الجامعات العالمية، من بين هذه الكتب الاستشراق الذي اقتبسنا منه بعض الفقرات واوردناها بلسان صاحبها ، "أعني به التفاهم مع الشرق بأسلوب قائم على المكانة الخاصة التي يشغلها هذا الشرق في الخبرة الأوربية الغربية، فليس الشرق وحسب مجاورا لأروبا بل إنه أيضا موقع أعظم وأغنى وأقدم المستعمرات الأوربية، وهو مصدر حضارتها ولغاتها ومنافسها الثقافي وهو يمثل صورة من أعمق صور الأخر، وأكثرها تواترا لدى الأوربيين" [3]

وزاد قائلا في توضيحه لهذا المفهوم الملتبس "فالشرق جزء لا يتجزأ من الحضارة المادية والثقافية الأوربية، والاستشراق يعبر عن هذا الجانب ويمثله ثقافيا بل وفكريا باعتبار الاستشراق أسلوبا للخطاب ، أي التفكير والكلام تدعمه مؤسسات وبحوث علمية ومذاهب فكرية، بل وبيروقراطيات استعمارية، وأساليب استعمارية "[4].

وفي نفس المنحى أضاف أنه عديده هي التعاريف، وأما أيسر التعريفات المقبولة للاستشراق "فهو أنه مبحث أكاديمي بل إن هذا المفهوم لازال مستخدما في عدد من المؤسسات الأكاديمية، فالمستشرق كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعات خاصة بالشرق سواء تعلق الأمر في مجال الأنثروبولوجيا، أو علم الاجتماع؛ التاريخ ،فالاستشراق إذن وصف لهذا العمل "[5].

---

[1] : محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، 1998، ص 19.

[2] : المرجع نفسه.، صفحة نفسها.

[3] : إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني ،الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق،، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2006، ص 45.

[5] : المرجع نفسه، ص 46.


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ولو أن المختصين في المجال الاستشراقي لا يقبلون وصفهم بالمستشرقين مفضلين تسمية أعمالهم "بالدراسات الاستشراقية ،أو مصطلح دراسات المناطق " ،فقد ارتأينا ان نقتفي بصمة إدوارد سعيد في هذا الميدان العلمي، الذي تركه للأجيال القادمة "فالاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى بالشرق وبين ما يسمى بالغرب ...،فما يكتب بالشرق فهو موجه وخاضع للوصاية الفكرية نظرا لتداخل المصالح وتشابكها ...فبالرغم من تراجع الاستشراق القديم لازالت هناك مؤتمرات حول الشرق ولازالت الموضوعات حوله زاخرة في الحياة الأكاديمية من خلال ما أرساه من مذاهب وتيارات فكرية"[1] ،فمن خلال ما أورده إدوارد سعيد على وجود استشراق قديم بالرغم من تراجع مستواه، مع استمراره في أشكال حديثة تسمى بالدراسات حول الشرق معبرا عنها بأشكال أخرى، مؤتمرات دولية وندوات فكرية، مع إقراره بأن هناك وصاية فكرية ممارسة على الشرق، هذا يحيلنا لتساؤل عن مساره التاريخي وسياق انبعاثه؟ وهذا ما سنحاول أن نتعرف عليه من خلال النقطة الموالية.

### 1-2 نشأة الاستشراق وتطوره التاريخي.

تضاربت الآراء والدراسات حول البدايات الأولى لنشأة الاستشراق ، وهنا نستحضر ما قاله الدكتور محمود حمدي زقزوق "أن هناك من المؤرخيين من اعتبر البداية الحقيقية للاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي في عام 1312م الذي أمر بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الغربية ،لكن كان هناك استشراق غير رسمي قبل هذا التاريخ"[2] ، وفي تتبعنا للجانب التاريخي وسياق نشأته اهتدينا إلى كتاب معنون بتاريخ حركة الاستشراق ، و فيه بعض الجوانب التاريخية حول هذا المعطى ، "وللحق فإن فتوحات العرب الكبرى والمواجهة المسلحة بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية، هذه الأخيرة فقدت مستعمرات لها في أسيا وشمال إفريقيا باستثناء أسيا الصغرى على يد العرب في القرن السابع الميلادي ثم اضطرت لتخلي عن أسيا الصغرى للسلاجقة في القرن التاسع بعد معارك طاحنة ،وبسقوط صقلية فقدت السيادة على البحر ،فأصبح البحر المتوسط غير آمن مرتعا للقراصنة ،وفي الغرب فتح العرب والبربر معظم إسبانيا و لم يبقى منها سوى شمالها الغربي، قبل أن تبدأ حروب استرداد ،هذه الأمور شجعت على العدائية بين الضفتين "[3]

هذه الأحداث هيأت الظروف للأوربيين للإقبال على دراسة اللغة العربية وأدابها، باعتبارهم ورثة وحفظة التراث اليوناني وأوصياء عليه. بما تضمنه من علوم كالطب، الفلك، العلوم الحقة والفلسفة، استدعت ترجمتها ونقلها من اللغة العربية إلى اللغات اللاتينية وبه ظهرت أولى ترجمة للقرآن سنة 1143م. على يد بطرس المبجل صاحب أقدم ترجمة للقران.

أما إقبال الأوربيين عموما على الاهتمام باللغة العربية وآدابها كان مرده إلى التبشير وهذا ما يؤكده صاحب الكتاب تاريخ حركة الاستشراق ،"لقد كانت فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف انشغال الكنيسة بترجمة القران واللغة العربية، وكلما تلاشى الأمل في تحقيق نصر نهائي بقوة السلاح، بدا واضحا أن احتلال البقاع المقدسة لم يؤد إلى ثني المسلمين عن دينهم، بقدر ما أدى إلى عكس ذلك هذه الأمور جعلت الأوربيين يتأثرون بصلابة الحضارة الإسلامية وقوة أفرادها مما دفعهم إلى نقل معيشهم في حلبات الفكر، ومعاشهم ،وعاداتهم . ،ففي السنة التي انهزمت فيها الجيوش الصليبية أمام الجيوش الإسلامية ، ظهرت ترجمة

---

[1] : المرجع نفسه ،ص 47.

[2] : محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص 19.

[3] : يوهان فوك، ترجمة عمر لطفي العالم ،تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية والاسلامية في اوروبا حتى بداية القرن 20 ، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية 2001، ص 15.


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

القران على يد بطرس المبجل سنة 1143م"1 ، فهذا الأب المبجل شغل رئيس دير كيلاني الذي ولد في سنة 1092م – 1157م، أقلته رحلة عمل إلى إسبانيا في سنة 1141 م. وفي تلك البلاد تعرف على حياة المسلمين في الأندلس والحوار الدائر بين الإسبان والمسلمين.

في ظل الجو المشحون في الأندلس خرج هذا الأب بقناعة مفادها "بأن لا سبيل إلى مكافحة هرطقة محمد بعنف السلاح الأعمى، وإنما بقوة الكلمة، ودحضها بروح المنطق الحكيم للمحبة المسيحية"2. ولتحقيق هدفه كان وضع خطة للعمل على ترجمة القران إلى اللاتينية، "3

فإذا ما تبينا الأمر واستقرأنا الأحداث بشكل متمعن ،فسيتضح أن الدافع نحو الإستشراق كان دافعا دينيا –تبشيريا بعد استشعار لخطر الإسلام وصلابة الحضارة الإسلامية، وتمسك المسلمين برابط عقدي من خلال القرآن الكريم ، خصوصا بعد فشل الحروب الصليبية انطلقت حملات استشراقية لمعرفة ما يحمله هذا الكتاب من مضامين وسنن إلهية ، وهو ما دفع ببطرس المبجل إلى الإقدام على ترجمة القران الكريم.

هذا بالإضافة إلى دوافع أخرى كانت تشغل بال المستشرقين الأوائل توصلهم إلى أن العرب ومكتباتهم كانت تحتوي على كتب ومصنفات رأوا فيها أنه من الواجب ترجمتها إلى لغاتهم اللاتينية، وهذا لن يتأتى لهم إذا لم يكونوا مطلعين باللغات العربية والعبرية، الشيء الذي دفعهم فيما بعد إلى تعلم اللغات وإنشاء كراسي علمية، خصوصا بعد قرار المجمع الكنسي 1312م بفيينا.

أمام ما استعرضناه هناك رأي أخر يشير إلى يوحنا الدمشقي (676-749)، هذا الأخير عاش غي البلاط الملكي الأموي وشغل منصب طبيب الملك، كانت له عدة مصنفات علمية منها (محاورة مع مسلم)، وكتاب (إرشادات النصارى في جدل المسلمين) فهناك من اعتبره من أول المستشرقين، وان كان الدكتور محمود حمدي زقزوق لا يتفق مع هذا الطرح "باعتباره شرقيا وعاش في ظل الشرق وفي ظل الدولة الأموية وخدم القصر الأموي لهذا ينسحب عليه هذا الوصف"4

فنشأة الحقل إذا، كانت بدافع ديني، تبشيري، وبه ظهر على الساحة الاستشراقية عددا من اللاهوتيين ممن انتموا إلى خندق الكنيسة، خصوصا الدومينكان والفرنسيسكان، بل حتى الإسبان، بحيث فرض على من هو راغب بإجراء حلقات الوعظ والتبشير، أن يكون ملما باللغات العربية وأدابها . ليسهل نشر الفكر المسيحي في أوساط المسلمين وفي ديارهم،." 5.

مع قرار المجمع الكنائسي العام الملتئم في مدينة فيينا بتطبيق القانون الذي جرى عليه التصويت بكثرة، والذي أقر بتعيين مدرسين كاثوليكيين في كل الجامعات الخمس: باريس –أوكسفورد –بولونيا–سلمنكا–وجامعة الادارة المركزية البابوية من أجل تدريس اللغات اليونانية، العبرية، العربية، الكلدانية"6

---

[1] : المرجع نفسه، ص17.
[2] : المرجع نفسه ،صفحة نفسها.
[3] : المرجع نفسه ،ص 18.
[4] : محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص 20.
[5] : يوهان فوك، مرجع سابق، ص 28-29.
[6] : المرجع نفسه، ص32.


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

فغاية الكنيسة بإقرارها للقانون الذي يسمح بتدريس اللغات المشرقية ،كان من أجل تمكين مبشريها من رصيد لغوي وثقافي ،حتى يسهل عليهم التعامل مع هذه الأقوام .

فقد عرفت منذ القرن الثاني عشر ميلادي، تزايد الإقبال على دراسة الشرق بداية بما هو متعلق باللغة وأدابها، مرورا بدراسة الدين والعقيدة، ثم العادات والتقاليد، لكن مع الحملة الفرنسية لنابليون بونابرت على مصر 1791م، زاد إقبال المستشرقين على بلاد الشرق لمعرفة مكامن ثرواته وخيراته، .1

وهذا يدل على تحول أهداف المستشرق من ما هو ديني – ثقافي إلى ما هو سياسي اقتصادي، ومنه نستشف على أن الاستشراق متعدد الروافد والمجالات، كيف لا والعالم الغربي شهد تغيرات جذرية في نظمه العلمية والسياسية والدينية، وخير مثال على ذلك الثورة الفرنسية لسنة1789م، الثورة الصناعية بإنجلترا، ثم الثورة الفكرية. كل هذه العوامل متضافرة سهلت الباب لبروز علوم جديدة، وأفاق علمية جديدة لعبت دورا فعالا من خلال الدراسات المنجزة والأبحاث المتوصل إليها في كل المجالات في خدمة بلدانها سواء بطرق مشروعة أو غير مشروعة من خلال –الدراسات الاثنوغرافية ، هذه الأخيرة هي التي استرعت انتباهنا نظرا لأنها تعود إلى عهد ليس ببعيد، ولكون أغلب الدراسات هدفت إلى التنقيب عن أعمال المستشرقين في ما يتصل بالدين أو اللغة ، أو الثقافة، انصب اهتمامنا من هذه الدراسة على أعمال بعض المستشرقين ذوي التوجه الكولونيالي، وما قدموه من أدوار في تسهيل مأمورية الاستعمار الأوربي خلال القرنين التاسع عشر ، والعشرين. وهنا سنركز على أوغست موليراس وجاك بيرك، وذلك من خلال الشق الموالي من العمل.

## 2. الدراسات الاثنوغرافية لأوغست موليراس، والسوسيولوجي الفرنسي جاك بيرك.

### 2-1 الدراسات الاثنوغرافية على قبائل الريف وجبالة –المغرب المجهول ،أوغست موليراس.

يصعب حصر كل المستشرقين الذين اشتغلوا في هذا المجال، وفي مختلف التخصصات (أمثال عميد المستشرقين غولد زهير ignaz Goldziher ،جوزيف شاخت Joseph schacht،لويس ماسينيون Louis Massignon ،رودي بارت Rudi paret ،فمنهم من تخصص باللغة ،وهناك من كان اهتمامه قضايا العقيدة والفقه ،كما أن هناك من اتصل بالتصوف ، وبما أن للاستشراق أهداف ومرامي متنوعة دينية ثقافية ،اقتصادية وسياسية سلطنا الضوء على أحد المستشرقين الذي قام بإجراء بحوث ميدانية ،مستعينا بمخبرين ومتعاونين إذ تسمى هذه النوعية من البحوث بالدراسات الاثنوغرافية " الدراسات الجيوسياسية ، تروم اكتشاف مناطق جديدة لم تصلها أيادي المستعمر ، يستعان بها كمرحلة أولى قبيل الاستعمار العسكري ، يمكن القول على أنها أشبه بالأعمال الإستخباراتية والجاسوسية بمفاهيم السياق الحالي ،ولكن تحت غطاء علمي ، ولتحقيق هذا المعطى وظف المستعمر كل الوسائل لتحقيق ذلك ،وجند كل أعوانه من باحثين ومخبرين لخدمة أغراضه الغاشمة كما هو الشأن مع المستشرق Auguste Moulieras ..الشيء الذي يدفعنا إلى المزيد من التنقيب والبحث في سيرة هذا الرجل ،(صاحب الدراسة المعنونة بالمغرب المجهول التي جاءت في جزئين اكتشاف قبائل الريف، واكتشاف قبائل جبالة بالمغرب، وهذا ما سنعمل على التفصيل فيه في الفقرة الموالية .

[1] عبد الكبير الخطيبي ،مرجع سابق، ص27.


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

### 2-2 المستشرق أوغست موليراس.وعسر التعرف على قبائل الريف وجبالة .

لم يعرف أوجست موليراس (1855-1931)،بأنه مستشرق أو مستعرب ،وإنما باعتباره أحد المهتمين بالدراسات الاثنوغرافية ،هذا الأخير من أصول فرنسية عاش في الجزائر ،ومارس بها مهنة التدريس ،بالرغم من أن اسمه غير مدرج ضمن المدرسة الاستشراقية الفرنسية ،فأعمال هذا الجاسوس الاستخباراتي من خلال جلباب الدراسات الاثنوغرافية ،وخير مثال على ذلك الدراسة التي قام بها لمناطق شاسعة من شمال وشرق المغرب "المغرب المجهول في جزئين "الجزء الأول اكتشاف الريف ،واكتشاف جبالة كجزء ثاني ، وهي الدراسة التي صدرت سنة 1895 بوهران حسب ما جاء في الترجمة -التي تكفل به الدكتور عزالدين الخطابي سنة 2016 ، فهذا العمل الضخم قدم فيه معلومات وفيرة وحساسة عن البلاد ،في شتى القطاعات ،سواء من حيث جغرافيا المنطقة ؛من حيث الأجناس والأعراق ،من حيث المناخ والبيئة ،ومورد الدخل والثروات التي تزخر بها ،نمط عيش السكان ،سلوكهم ونمط حياتهم عاداتهم ، .واحصى عدد القبائل وعدد الأفراد والأسر بها، هل بها شباب ام نساء ،كما تطرق للجانب الديني الزوايا، المساجد. وصف للأسواق واماكن إقامتها، أجود الأراضي المتواجدة بالمناطق التي زارها بحيث قدم معلومات دقيقة جدا ، وليثبت أن عمله يتسم بالموضوعية : "افتتحوا هذا الكتاب واوقفوا أي ريفي التقيتم به، كان عالما أو جاهلا، واقرأوا عليه الجزء المتعلق بقبيلته والمنطقة التي يعرفها سيكون رد فعله إدانة لي أو إثبات لما قلته "1 .

كما أشار إلى أنه لم يزر تلك المناطق فقط اعتمد على ما أملاه عليه القبائلي المنتمي للطائفة "الهداوية" (محمد بن طيب الملقب بدرويش، الذي زار مناطق المغرب لأزيد من عشرين سنة منذ 1872إلى وزيادة في التحري والتقصي عن صحة المعلومات المقدمة استعان باستخبار الفلاحين الريفيين الذين كانوا يشتغلون بالفلاحة في الجزائر "2.

ومن جهتنا لتأكيد على أن هذه الدراسة تندرج ضمن الحقل الاستشراقي، سيقر موليراس Mouliéras بأن "التعامل مع أي شعب يستلزم التعرف على عاداته وتقاليده، وفهمها بشكل جيد، وأحسن وسيلة لتحقيق ذلك هو تعلم اللغة ،لذا سيكون من اللازم تعلم اللغة العربية والأمازيغية قبل الكتابة عن أي جزء من أجزاء المغرب الكبير والعالم الإسلامي "3. كما انتقد كل الأعمال الاستشراقية السابقة سواء في مجال الجغرافيا ،والتاريخ، والخرائط على اعتبار أنهم لم يقدموا تقاريرا صحيحة و لم يقدموا إلا دراسات جوفاء لا طائل منها، وتساءل كيف لهم لم يكتشفوا هذا البلد المجاور؟

لهذا راح يقدم بعض التوصيات لشباب الأوربي والفرنسي الراغبين في اكتشاف المغرب "أيها الفرنسيون الشباب المقبلون على السفر إلى المغرب عليكم أن تستحضروا دائما هذه الحقيقة التي تم تجاهلها لمدة طويلة ،وهي أن كل المكتشفين الأوربيين قد فشلوا ،وسيفشلون في العالم الإسلامي بسبب جهلهم باللغة العربية"4، وأضاف قائلا: "إن السفر إلى بلد تجهل لغته معناه السفر مثل الأصم -الأبكم ،فما هي المعلومات التي يمكن أن يجنيها مكتشف يجوب البلاد دون التفاهم مع السكان "5 ، كما أشار إلى أن سبب تفادي الفضوليين للمغرب كان عائد إلى جهلهم باللغة . أما عن الدوافع التي شجعته على المضي قدما في هذه الدراسة ،يوضحه في طيات العمل ، " فضول رواده منذ طفولته لمعرفة الجار الذي يشاركنا مئات كيلومترات من الحدود، ولأن مسقط

---

[1] : أوغست موليراس ترجمة عزالدين الخطابي، المغرب المجهول الجزء الأول، اكتشاف الريف ، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007، ص 12.

[2] : المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

[3] : المرجع نفسه،صفحة نفسها.

[4] : المرجع نفسه، ص 16.

[5] : المرجع نفسه،ص17.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

رأسه بتلمسان على بعد خطوتين عن الجنود المغربية، وبضيف ولأني تربيت وترعرعت تحت تأثير فكرتين لن أتوقف عن استحضارهما إلى يومنا هذا: معرفة جارنا المغرب، وإدراجه ضمن مجال التأثير الفرنسي"[1]

وفي سبيل ذلك عكف على تعلم اللغات وربط صداقات مع العرب والأمازيغ، ولقد تأتى له تحقيق حلمه الذي راوده فقد اكتشف بلد الجار، و لم تمر إلا سنوات عدة لا تزيد عن 12سنة من صدور الدراسة الذي صدرت في 30يناير 1895، تم توقيع معاهدة الحماية على المغرب في 30مارس 1912م.

وحسب ما أورده أحد المهتمين بتاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر، إلى تضافر عدة عوامل وأحداث كبرى عرفها المغرب في القرن التاسع عشر ،عجلت في إقبال وتهافت المخبرين والمستشرقين وعكوفهم على استطلاع أحوال البلاد ،منها المعارك التي خاضتها المملكة الشريفة ضد الدول الأجنبية وخسرتها –معركة تطوان مع إسبانيا سنة 1860،وقبلها معركة إيسلي مع فرنسا سنة 1844،هذه الأحداث أبانت عن ضعف الجيوش المغربية وأزالت الصورة المغوارة التي كانت في أذهان الأوربيين عن المغرب وبقيت راسخة لقرون بعد معركة وادي المخازن"2 ، بعدما حجب الستار أقبل الغرب بكل حمولته الفكرية، وعلومه الاجتماعية على دراسة المغرب.

وقد أشار الدكتور عز الدين الخطابي في مقدمة ترجمته للكتاب المغرب المجهول أنه يندرج ضمن (الحقل السياسي )،هناك معطى أخر كان مرتبطا بالعلاقات الاقتصادية التي أبرمها المغرب مع تجار الإنجليز عجلت كذلك في إقبال الدارسين على خوض غمار دراسة المغرب بغية اكتشاف خيرات هذا البلد على مستوى الاقتصادي، ثم المستوى الثقافي ، فحقبة القرن التاسع عشر عرفت مرحلة مهمة بحيث تطور علم الاستشراق واستفادته من العلوم الاجتماعية ومناهجها، فجل الدراسات سواء منها الاثنوغرافية أو السوسيولوجية خدمت المستعمر بشكل من الأشكال، وقدمت له معلومات مهمة عن المناطق والمجالات المدروسة ،أعانت جيوش بلدانها في تدخلاتها العسكرية ،كما هو الشأن مع الدراسة التي بين أيدينا لصاحبها أوغست موليراس فعندما قال: "لقد سجلت بخرائطي الأماكن التي توجد بها المناجم المعدنية لهذه المنطقة الغنية ،والعدد الإجمالي للسكان"3 ، لاشك من كلامه أنه جاسوس في صفة دارس في حقل علم الاستشراق ،أو ان صح التعبير فهو عميل في المخابرات الخارجية الفرنسية .

فالقارئ لأعمال هذا الداهية، سيصاب بالدهشة من حجم المعلومات المقدمة في هذه الدراسة (سواء اتسمت بالموضوعية، أم لا)، فإنه ساهم في إزالة كل لبس وغموض، وعرى المناطق التي درسها و لم يبقي على أي غموض، بتناوله لكل الأهداف التي يبتغيها أي ضابط عسكري ، مواطن القوة والصعف، حجم السكان، الفئات العمرية، الأعراق، العادات والتقاليد، الثروات الطبيعية والمعدنية التي تزخر بها المجالات المدروسة ، من غير المستبعد أن يكون قد أمدها للجهات الاستعمارية الفرنسية التي كانت بالجزائر، واستعانت بها في تدخلها العسكري على المغرب .

---

[1] : المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

[2] الهادي الهروي القبيلة الإقطاع والمخزن، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، افريقيا الشرق المغرب ،2005، ص30.

[3] : اوغست موليراس، مرجع سابق، ص37.


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

"ففرنسا مدعوة لخلافة العرب على مستوى الهيمنة الثقافية على العرب، والهيمنة السياسية على الأمازيغ. يجب أن يكون دور الأمم الحديثة المؤهلة لقيادة الشعوب المسلمة مغايرة تماما.... فبعد الحروب الصليبية ودروس الاستعمار الشاق نصفه علمي ونصفه حضاري ها هي فرنسا ترسم لنفسها هدفا في فجر قرن 19 في إطار حملتها الاستعمارية الإفريقية"1

وما يظهر كذلك رغبته الدفينة في تحقيق حلم طفولته باستعمار المغرب بقوله إنه ناقش مع مجموعة من الناس وهذا ما أفصحوا له به: "إننا لا نحب عجرفة وبرودة الإنجليز، وفكرة تعصب وقصر نظر الإسبان، والتهور التراجيكوميدي للإيطاليين، وثقل ظل الألمان، ورغم طيش الفرنسيين وميلهم نحو اليهود إلى حد ما، فإن فرنسا هي التي سنختار لتحكمنا إذا ما أجبرتنا الظروف على ذلك"2. وأضاف في موضع أخر من دراساته، "اذا كانت غالبية المغاربة غير قلقة على مستقبل وطنها فإن أصحاب الروية المسؤولين عن مصير المغرب يعرفون جيدا السيف المسيحي المستعد لاختراق أعمق الأقاليم بالإمبراطورية إنهم يبحثون عن كيفية تفادي العاصفة المدوية ،لقد ناقشت مرارا المسألة المغربية مع أعيان فاس ومراكش القلقين جدا وعن حق على مستقبل بلدهم والنتيجة التي توصلنا إليها قد تقدم لفرنسا امتيازات لا تحصى بالمغرب ومنافع لا تقدر بثمن ،ولن تراق قطرة دم واحدة للوصول إلى هذه النتيجة غير أن الزمن لا يرحم خصوصا يعملون دون هوادة لمضاعفة تأثيرهم داخل هذا البلد الرائع الذي يستحضرون ثروته وأهميته ،ويجب على فرنسا التي لها الأحقية في هذا البلد أكثر من الأخرين أن تتأمل في قول الشاعر العربي "وربما فات قوما جل أمرهم## عن التأني وكان الحزم لو عجلوا "3.

فمن خلال ما سلف يتبين مدى حماسة هذا المستشرق، ودعوته الصريحة للجيش الفرنسي للانقضاض على المغرب في أقرب فرصة.

أما عن مسار هذه الدراسة فهو يصفها في بداية الكتاب ،من خلال مقابلته للقبائلي محمد بن طيب الملقب بدرويش ،هذا الأخير يتحذر من منطقة بجاية ساقته ظروف اجتماعية في سنة 1872 لمغادرة بيت والديه في سن 16 فهام على وجهة مقتفيا الدروب والمناطق كقسطنطينية، تونس، المغرب ثم ساقته الظروف للالتقاء بالمستشرق أوغست موليراس الذي كان يشغل مدرسا مغمورا في تلمسان، فحكى له عن تجربته في زيارة لمنطقة الريف، .بمعدل 08 ساعات في اليوم كان يقضيها معه المستشرق ، و نظرا لنفور الرحالة من عالم الكتابة، كان يضطر المستشرق لتدوين كل شيء، فيقول المستشرق في وصف هذه التجربة الذي هو بصدد دراساتها وتمحيصها : "إن من طبيعتي لم تكن لتسمح لي بأن أمارس القديس الجوال ،والنوم في العراء ، وفي الأكواخ و بتلذذ أشهى الأطعمة أو تحمل الجوع لمدة 22سنة "4.

لربما أوغست موليراس اقتنع بأهمية المعلومات التي قدمت له ،وصدق الرحالة وتأكد منها من خلال التقائه بعدد من الريفين الذين كانوا يشتغلون في أعمال الفلاحة بالجزائر أكدوا له صدق المعطيات المتوفرة عنده ،فمسودة هذه الدراسة كانت جاهزة عن منطقة الريف1895 وبالضبط في 30يناير ،ما إن وصل إلى مبتغاه من الرحالة الدرويش ،حتى استطاع توفير له جواز سفر جديد ،وتوفير له المال ،وإرساله في بعثة جديدة هذه المرة إلى منطقة الشمال ،وهو يعلم أنه قد يلتقيه أو لا ،لكن المفاجئة حسب

[1] : المرجع نفسه،ص39.
[2] : المرجع نفسه، ص 40.
[3] : المرجع نفسه، ص 42.
[4] : المرجع نفسه، ص 22.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

صاحب الدراسة ،هو أنه راسله بثلاث رسائل :الأولى سلمها له ريفي ،الثانية تحمل بريد طنجة ،وثالثة تحمل بريد العرائش ومحبرة بأقلام مختلفة.

وما يظهر أن المستشرق أوغست موليراس كان استخباريا بامتياز قوله: "فإليك أيها الرحالة الجريء الذي يعتبره الجميع مجنونا أقول أحسنت ،أنت الذي خدمت فرنسا ،أكيد أن الوطن الكبير سيفكر فيك وانا الضامن لذلك."1 فكيف لمدرس عاش مغمورا ،أجرى دراسة ميدانية نظرية أن يضمن حقوقا لمتعاون إذا لم يكن له أدوارا ومكانة لدى أهل القرار في القصر الباريسي، وهذا يعني أن هذه الدارسات التي تدعي الموضوعية والحيادية العلمية فقط مفرقعات، أما الأصح تجنيد فرنسا لكل خبرائها وعلمائها لخدمة الجيش الفرنسي، وبالفعل خدموه أحسن خدمة .فأي قارئ سواء كان متعلما أو أكاديميا ، بمجرد قراءته سينبهر بغزارة المعلومات المقدمة في هذه الدراسة، ونحن في القرن الواحد والعشرين عصر المعلوميات، فكيف كان الأمر في أواخر القرن التاسع عشر، تاريخ صدور هذه الدراسة، لا محالة فتحت شهية المستعمر المستوطن بالجزائر منذ 1830م. لاختراق حصن زوج بغال، وجدة مرورا بتازة إلى الدار البيضاء منذ 1907،حسب ما أشارت إليه الكتب التاريخية أما توقيع معاهدة الحماية كان في 1912م.

بدورنا في جمعنا للمادة العلمية حول هذا المستشرق عما كتبه "أوغست موليراس من خلال عمله المعنون بالمغرب المجهول، اكتشاف الريف، الذي ترجمه الكاتب عزالدين الخطابي سنة 2007، الصادر عن مطبعة دار النجاح الجديدة الدار البيضاء، عدد صفحاته 226، "فمن خلال هذا العمل القسم الأكبر منه خصصه للقبائل التي تشكل منطقة الريف المغربي "قبيلة بقيوة، بني بوفراح، بني وريغل، بني سعيد، بني بوفراح ،وكل قبيلة وصفها بدقة متناهية في معيشها اليومي، وطقوسها وعاداتها.وما تمتاز به من خيرات وثروات. فإن المستشرق أوغست موليراس زادت شهيته لاكتشاف مناطق أخرى "وقد أشار في فاتحة عمله السابق اكتشاف الريف أنه توصل بثلاث رسائل من عناوين مختلفة مرسلة من الرحالة الجزائري –وهذه المرة ستخرج دراسة أخرى أكبر من الأولى خصصت لقبائل جبالة وعنونها " اكتشاف جبالة". هذه الدراسة صادرة في 10دجنبر 1897.

بعد عودة محمد بن طيب من المغرب في زيارته لعدة قبائل جبلية زارها لكن في رحلة عودته تكدر مزاجه بعد سحب جواز سفره في بلعباس بالجزائر هذه الواقعة يسردها أوغست موليراس " لقد تطلب مني استقطاب هذا الرجل من أجل قضيتنا سنة كاملة ،حيث أظهرت له الفوائد من احتلال فرنسا للجزائر والدور الذي لعبته ،وتعاملها بالتساوي مع كل الأديان وكل السكان بدون تمييز [...] صاحب حلم طفولي ،وانه قاصر التفكير ،دائما النزعة العنصرية ونبرة التعالي حاضرة ،من توات إلى مليليه إلى طنجة–سوس مشيا على الأقدام ليمدني بتواضع وإخلاص بكنوز ملاحظاته واكتشافاته الجديدة"2 .

عموما فالدراسة التي أتت في الجزء الثاني أكبر من سابقتها تضمنت عدد صفحاتها –703 حسب الترجمة التي تكلف بها عز الدين الخطابي ،ونفس استراتيجية التعامل مع الريف ،استخدم كذلك مع منطقة جبالة مع اختلاف في المعطيات ،وجغرافية المنطقة وعاداتها وتقاليدها لكن بدقة متناهية ،وبوصف محبوك فهناك رسالة كان قد وجهها موليراس سنة 03مارس 1899،إلى مدير مدرسة العليا بالجزائر روني باسي René Basset "فإن المغرب ليس كما ساد الاعتقاد حوله ،هو ذلك القبر الكبير والمظلم وليطمئن الجميع فنحن لن نقوم بتشريح جثة هامدة ، بل سنتابع شعبا حيويا نشيطا وسنتجول في ربوع جبالة هذه المنطقة التي شكلت جزءا من أوربا وانفصلت فما بعد بالشاطئ الإفريقي فوراء الحدود الوهرانية يوجد ملايين من الرجال في حاجة إلى

[1] : المرجع نفسه، ص26.

[2] : أوغست موليراس، المغرب المجهول، الجزء الثاني اكتشاف جبالة، ص. 06.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الهداية ،توجد منطقة في حاجة إلى إصلاح أتمنى أن تستحضرون هذا الأمر . فهذا المغرب المجهول الذي تعد وضعيته الجغرافية بأروع مستقبل وفي خاتمة برقية رسالته يطلب من صديقه أن يولي كتابه العناية اللازمة وأن يحظى بالاهتمام"[1].

ما قدمه أوغست موليراس من دراسات ميدانية –مأجورة، تدخل في خانة الدراسات الاثنوغرافية ، لا يستبعد ولا يدع مجال للشك أنها خدمت الجيش الاستعماري بشكل كبير، فمثل هذه الدراسات ليست سهلة، وقد تستغرق سنوات، (جمع فيها بين علم الأنثروبولوجيا، السوسيولوجيا، الجغرافيا، علم الإثنيات، التاريخ، الاستخبارات العسكرية) ، وأدرجها في دراسة شاملة تندرج في خانة الدراسات الاثنوغرافية، لكن في ارتباطها وعلاقتها بالاستشراق، الذي جعل الاستعمار كامتداد للحروب الصليبية.

فما قدمه أوغست موليراس بالنسبة لفرنسا، قدمه شارل ذو فكتز لإنجلترا سنة 1871، وشارل ذو فوكو لفرنسا (1883)، وسنخرج من نطاق الدراسات الاثنوغرافية (التي تخفت في جلباب الدراويش، للحصول على المعلومة)، بغية تمهيد الطريق لدخول المستعمر، وننتقل إلى مجال علمي أخر هو حقل الدراسات السوسيولوجية، الذي بحث عن المعلومات بشكل واضح وغير متخف، من خلال الأبحاث السوسيولوجية والدراسات الميدانية التي قام بها السوسيولوجي جاك بيرك. (وهو ما سيكون محور اشتغالنا في النقطة الموالية.

### 3. الدراسات السوسيولوجية –لجاك بيرك Jacques Berque على قبائل المغرب.

عالم الاجتماع الفرنسي الذي ساقته الظروف ليعيش فيه لمدة 20سنة، فرنسي الجنسية ،جزائري المولد، ولد سنة 1910بوهران من أب شغل منصب مراقب مدني (قائد)، قبل أن ينتقل للجزائر العاصمة ،فيها أمضى طفولته ومراحل من حياته انتقل إلى فرنسا سنة 1930 م لاستكمال مشواره الجامعي في جامعة السوربون شعبة علم الاجتماع، ترك دراسته بها بعد سنتين ،عاد للجزائر ،لكن تفاديا لخيبة والديه التحق بالخدمة العسكرية بالمغرب 1934م،ومنه اجتاز مباراة مراقب مدني ،ليعين مسؤولا على ثلاث قرى ،قبل أن يستقر به المقام بفاس سنة 1937،ونظرا لمواقفه من سياسة بلاده الاستعمارية نقل تأديبيا إلى جبال الأطلس كمراقب مدني ليستغل ذلك المكان لاستكمال مشواره الجامعي من خلال إنجاز دراسة –البنى الاجتماعية في الأطلس الكبير " هذه الدراسة أجريت على قبيلة سكساوة نواحي ايمنتانوت ،ونظرا لاعتبارات عدة أبرزها أن المنطقة لم تكن بعد وصلتها ايادي المستعمر ،الا في سنة 1927،ومن ثم فبنيتها الاجتماعية بقيت متماسكة مقارنة مع باقي المناطق التي خضعت للاستعمار .

فالسوسيولوجي جاك بيرك، من خلال عنوان دراسته على قبيلة سكساوة، فهو من المنتمين إلى المدرسة الدوركهايمية الوظيفية، التي تؤمن بأسبقية المجتمع على الفرد، وان المجتمع يمارس نوعا من الإكراه الخارجي، وأن وظائف كل المؤسسات والبنى تؤدي نتيجة واحدة، وبالتالي انسياق جميع الأفراد من خلال التنشئة الاجتماعية لضوابط المجتمع ،نفس الطرح ذهب إليه العالم السوسيولوجي تالكوت بارسونز (في أمريكا). من المحتمل أن يكون جاك بيرك من المنتمين لهذه المدرسة السوسيولوجية –الدوركهايمية.

[1] المرجع نفسه، ص 03.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

فبعد أن غادر المغرب سنة 1953، اتجه لسوربون لمناقشة أطروحته الجامعية حول "قبيلة سكساوة "فذاع صيته في الأوساط الأكاديمية، فكلفته اليونيسكو بإجراء أبحاث ميدانية في مصر، لكن سرعان ما عاد لفرنسا من بوابة كوليج دوفرانس، ليشغل منصبا أكاديميا.

ما عرف عن جاك بيرك كسوسيولوجي دارس ميداني، للقبائل التي كان مراقب مدني عليها، صحيح أن صيته ذائع في كل الأوساط العلمية، لكن آيعقل أن يكون مراقب مدني (قائد ترابي في الإدارة الترابية –الداخلية بمفهوم اليوم، ولا تضع الدراسات الميدانية المتوصل إليها في خدمة أهداف بلدك المستعمر؟

وهو الذي عين في قرى وبلدات وقبائل عدة لمدة عشرين سنة، لا محالة ساهم من خلال خبراته العلمية في دعم وتركيز شوكة المستعمر في هذا البلد، مهما قدمت من المعلومات، ومهما جملت صورة جاك بيرك في أعين قرائه. فهو خادم للمستعمر، ولكن يجب ألا تنسى محاسنه، أنه من بين المساهمين للمعهد العلوم الاجتماعية بالمغرب كما أنه من محبين للإسلام والمسلمين، وهو الذي قال: "الإسلام هو الذي نقل، وأعني الفكر القديم عبر اشتغاله على أفلاطون وأرسطو، وكان ابن خلدون والبيروني كاتبين عظيمين، أما عن العمارة فلك أن تتجول اليوم في إسبانيا، وتزور قصر الحمراء لتفهم كل شيء"[1].

على ذكر اعمال هذا السوسيولوجي–المستشرق: فهي عديدة، حوالي 165كتاب، مما تدل على غزارة كتابته، وعلى موسوعية فكره (الإسلام يتحدى)، (دراسات في التاريخ الريفي المغربي)، (وسوسيولوجيا الدولة بالمغرب)، (البنى الاجتماعية في الأطلس الكبير)، (ترجمة معاني القران).

فجاك بيرك لا يقبل بوصفه مستشرقا برده بما يلي "لست مؤرخا، ولا رحالة، أو حتى مستعربا، أنا أرفض كل التوصيفات، كل ما هناك أني وقعت يوما في حب منطقة وتاريخها ورحت أحاول دراستها، دون أي رغبة في أن أكون مستشرقا بالمعنى المهني للكلمة"[2].

فالمقارنة ما بين أوغست موليراس –المتخصص في الدراسات الاثنوجرافية (متخفي) في تسليط الضوء على المغرب، وما بين جاك بيرك المتخصص في السوسيولوجيا، فقد "حصل بيرك معرفة عميقة بالقانون الشرعي، مثلما اعتبرت معرفته بالمغرب أعمق، لقد خبره عبر المعايشة اليومية للناس، مثلما نقب عليه في الوثائق المتوفرة بمكتبات الزوايا ورفوف المحاكم وخزانات الأعيان الخاصة، ويعتبر البعض جاك **بيرك** مؤرخا أكثر منه سوسيولوجي"[3] وكذلك من خلال دراسات ميدانية وعلمية (بوجه مكشوف)، لقد قدم هذا الأخير خدمات جليلة سواء للمستعمر ،أو لأبناء الوطن بمساهمته في إدخال علم جديد لم يكن معروفا من قبل في الأوساط المغربية، ما عاد بعض العائدين لأرض الوطن ممن أتيحت لهم الفرصة لإكمال مشوارهم الجامعي في فرنسا من الأسر الميسورة ،كما ساهم في إنشاء معهد العلوم الاجتماعية، بالإضافة إلى تسامحه مع الإسلام والمسلمين فهو يدخل في زمرة المستشرقين المعتدلين الذي ينبغي التعامل والاحتكاك معهم على حد قول الدكتور محمود حمدي زقزوق.

فجاك بيرك ليس السوسيولوجي الوحيد الذي قام بدراسات ميدانية على قبائل المغرب، فالمحفل العلمي السوسيولوجي المغربي خلد أسماء بارزة (نذكر بول باسكون الذي أعتبر كمؤسس لعلم الاجتماع القروي بالمغرب) (روبير مونتاني)، وإن كان

---

[1] : دانية زعيمي، جاك بيرك عالم الاجتماع الفرنسي الذي استغل استعمار المغرب لتغيير كليشيهات أوروبا عن العرب والإسلام، مجلة مريانا الإلكترونية، 9 غشت 2021، https://marayana.com/laune/2021/08/09/5694/

[2] : المرجع نفسه.

[3] : نور الدين الزاهي، مدخل لعلم الاجتماع المغربي، دفاتر وجهة نظر 20، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة 1: 2011، ص 63.


© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لعالم الاجتماع المغربي عبد الكبير الخطيبي رأي أخر، "إن الإنتاجات السوسيولوجية التي تناولت موضوع المغرب لم تكن علمية إلا بعد سنة 1979، مؤكدا بأنه تخللتها إيديولوجيات على نحو ما "1

**خاتمة:**

الاستشراق كحقل معرفي له امتدادات عدة ،فمن خلال الدراسات والأبحاث التي كان المغرب قبلة لها ،خلال القرن العشرين ،سواء قبل توقيع الحماية ،أو بعدها ،ساهمت هذه الدراسات في دعم وتركيز شوكة الإستعمار من خلال مده بمعطيات وظفت في خدمة المخطط الإمبريالي ،تحت غطاء علمي .

فالنموذج الذي قدمناه لأوغست موليراس –Auguste Mouliéras ، من خلال كتابه المغرب المجهول ،قدم معطيات ،ووصفا للمجال المدروس بشكل دقيق ،من حيث العادات والتقاليد ، البيئة، الثروات الموجودة ،عدد السكان ،هذه الدراسات الإثنوغرافية التي سبقت التواجد العسكري وقبل توقيع المعاهدة الحماية ،أفادت الخطة العسكرية للجيش الفرنسي .

أما جاك بيرك Jack burke فهو نموذج لدراسات السوسيولوجية ،سوسيولوجي ،ومستشرق محب للإسلام والمسلمين ،لكن دراساته السوسيولوجية لقبيلة سكساوة والتي تقدم بها لنيل شهادة الدكتوراه ،قدمت ما يفيد المد العسكري الفرنسي ،في إحكام قبضته على المنطقة.

ومنه نستنتج أن جل الدراسات والأبحاث التي كان المغرب ضمنها ،لعبت ادوارا هامة في تركيز التواجد الإمبريالي .

[1] : دانية زعيمي، مرجع سابق.


© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

**لائحة المصادر والمراجع:**


- إدوارد سعيد ، ترجمة محمد عناني، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2006.
- أنتوني غيدنز،Anthony Giddens ترجمة فايز الصياغ، علم الاجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة ،بيروت ،الطبعة الرابعة،2005.
- أوغيست موليراسAguste Mouliéras ،ترجمة عز الدين الخطابي ،المغرب المجهول ،الجزء الأول: اكتشاف الريف ،دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007.
- أوغيست موليراس،Auguste Mouliéras، ترجمة عز الدين الخطابي ،المغرب المجهول الجزء الثاني: اكتشاف جبالة، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2016.
- دانية زعيمي، جاك بيرك عالم الاجتماع الفرنسي الذي استغل استعمار المغرب لتغيير كليشيهات أوروبا عن العرب والإسلام، مجلة مريانا الإلكترونية، 9 غشت 2021، https://marayana.com/laune/2021/08/09/5694/
- محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، 1998.
- نور الدين الزاهي، مدخل لعلم الاجتماع المغربي، دفاتر وجهة نظر 20، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة 1: 2011.
- يوهان فوك، ترجمة عمر لطفي العالم، تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية والاسلامية في اوروبا حتى بداية القرن 20، دار المدار الإسلامي، بيروت، ، الطبعة الثانية.2005.
- عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، منشورات الجمل، بيروت،2009.
- الهادي الهروي، القبيلة، الإقطاع والمخزن، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، إفريقيا الشرق ،الطبعة الأولى ، 2005.
- عبد الإله القيدي، محاضرات جامعية في مادة الثقافة المغربية، ماستر اللغات والحضارات الشرقية ومقارنة الأديان ،جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، فاس،الموسم الجامعي 2022 2023.
- عبد القادر بوطالب، محاضرات جامعية في مادة الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، الفصل الثالث شعبة السوسيولوجيا، كلية الأداب والعلوم الإنسانية ،جامعة عبد المالك السعدي بتطوان 2023-2024.



© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/